

الصراع بين الإيمان والوثنية في السيرة الشعبية الإسلامية:

سيرة راس الغول أنموذجا

عبد السلام شرماط
باحث مغربي



قسم الدراسات الدينية

تقديم:

يظلّ متخيل الحكّي الواقعي – داخل النصوص المروية – قابلاً للتماثل والتوازي مع ما يمكن تسميته بالواقع الممكن على أساس احتمالي، إذ نقرأ منتناً حكاياً يتوازي مع واقع محتمل، انطلاقاً من واقع يكون مجال تحكّم خالص لرؤى العقل وتقديراته؛ فيما يشتغل الحكّي اللا واقعي في النصوص المرويّة على أساس لا احتمالي، حيث تسند التحوّلات والأصوات السردية إلى شخصيات لا واقعية، ممّا يضع المتلقي أمام بنية لا احتمالية تشدّ الانتباه في كثيرٍ من المفاجآت العجيبة والغريبة التي تجعله مصراً على الاستمرار في تتبع أحداث الحكّي منذ البداية، وحتى النهاية.

وعلى الرغم من أنّ فنّ السيرة نوع أدبي قديم عني بتدوين التواريخ من الناحية المنطقية والتسلسل الزمني، فإنّ المادة الحكائية في سيرة رأس الغول¹ تنبني على عدة مقاطع سردية، يمكن النظر إليها كألغاز (enigmes) تمنح السرد عمراً طويلاً، يشد انتباه المتلقي إلى حد يقف فيه بين الحقيقة والخيال، وكلما تمددت مقاطع السرد ابتعدت الحقيقة، وظل عنصر التشويق يشتغل كإولوية لم تستطع السرديات ضبطها، لكون الظاهرة مشتركة بين عدة ممارسات تركز إلى السرد؛ فالسرد يحيا بألغازه ويموت بظهور الحقيقة.

وفي سيرة رأس الغول حكي سردي ثري يشد انتباه المتلقي، وذلك لما فيه من أحداث يمتزج فيها العجائبي والغرائبي بالواقعي المستمد من الذاكرة الشعبية الإسلامية، سيما ما تعلق منها بالموروث النبوي الذي يشهد لدور الرسول الكريم في محاربته للوثنية قصد ترسيخ قيم إسلامية تدعو إلى الإيمان بالله وبوحدانيته، ونبذ الظلم والجور والدعوة إلى المساواة والتسامح، فيما جسّد رأس الغول نموذجاً للكفر والطغيان والاعتداء، وهو ما يضعنا أمام سيرة جسّدت صراعاً بين الإيمان والوثنية.

1- العنوان والمنهج:

مادام العنوان "سيرة رأس الغول" هو مفتاح السيرة، فإنه هو العنصر الرئيس في توجيه السرد والتحكم فيه، ومن ثمة يفرض نفسه بين المقاطع السردية ليتحكم في حجمها. وحتى نتمكن من استجلاء هذه المقاطع، فإنّ المنهج البروبي (نسبة لفلاديمير بروب صاحب مورفولوجيا الخرافة) يبقى السبيل الذي يسعفنا في توزيع المقاطع السردية عبر وظائف، يمكن عدها قيماً ثابتة في المتن الحكائي للسيرة.

¹ - كتاب فتوح اليمن المعروف برأس الغول... طبع على نفقة النجاتي المحمدي، صاحب مطبعة ومكتبة النور، بدون مؤلف، بدون تاريخ.

"راس الغول" عنوان السيرة الشعبية النبوية، مقطع سردي يستقبله المتلقي كلغز من ألغاز السرد، ليعيده في جملة من الأسئلة، ما شكل الغول؟ وما طبيعته؟

ثم تتحوّل هذه الأسئلة إلى فرضيات، يتصوّر فيها المتلقي أنّ الغول وحش/مخلوق مضاد للخلق الإنساني؛ بمعنى أن العنوان يوحي بلغز حول مخلوق مجرد من السلوك الإنساني المألوف، ويلتقي مع الوحش المتصور ذهنياً من حيث البشاعة وفساد الخلق والأخلاق (كبير الرأس – لا يرحم صغيراً أو كبيراً)، وهكذا يزداد اللغز تعقداً وتشابكاً، حين يدفع الراوي بعجلة الحكيم في شكل مقاطع متداخلة تضع المتلقي في ميزان فنتازي (FANTASTIQUE) يتردد فيه باله بين العجائبي والغرائبي، حتى وإن تضمنت السيرة بعض الحقائق التاريخية الثابتة، ذلك أن الراوي غالباً ما ينطلق من حقائق، لكن وفق حدود يتمتع بها بوصفه كاتباً أو راوياً للسيرة، وفي ظل هذه الحدود يستطيع تخطي الواقع نحو ما فوق الواقع، أو يمزج بينهما حتى لا تكون الأحداث شديدة على المتلقي، فيقع في الانبهار أو الصدمة.

لذلك يبقى المنهج البروبي هو الكفيل بتصنيف المقاطع السردية، والنظر إليها كمعطى حكاية قابل للتجلي والتصنيف.

2- موضوعة السيرة:

الموضوعة الأولى التي تطرحها السيرة هي الإعلان عن الاعتداء الذي تعرضت له العجوز من طرف راس الغول؛ بمعنى أن راس الغول يمارس دور المعتدي (بلغة بروب) الذي ألحق أضراراً بضحيته (العجوز)، وتتجلى هذه الأضرار في اغتصاب ملكها، وقتل رجالاتها، وذبح بناتها، مما وضع العجوز في وضعية إساءة أجبرتها على الرحيل والابتعاد عن موطنها (وظيفة الابتعاد) نحو موطن تجد فيه الأمن والأمان؛ فكان موطن الإسلام هو خير ملاذ لها، لتتشكو حالها للرسول صلى الله عليه وسلم، وتخبره عن أفعال راس الغول اللا إنسانية (وظيفة الإخبار).

لقد استطاعت الوافرة بنت الصوام/ العجوز أن تخترق سطوة راس الغول بالرغم من تجبره وطغيانه، وذلك حين أعلنت إسلامها وإيمانها بدعوة محمد النبي، ورفضت وثنية راس الغول، متحملة في ذلك كل الأضرار والإساءات، "قال ويحك ما كان أغراك بهذا الدين الذي دخلت فيه، وما أغنى عنك شيئاً ولكن ارجعي إلى دين أبيك وجدودك، وأنا أطلق باقي رجالك واخلي سبيلك قالت: فلما سمعت يا رسول الله ذلك الكلام صار الضياء في وجهي ظلاماً، لأنني قد حلا في قلبي الإسلام وعبادة المالك الديان، ثم قلت: الويل لك يا ملعون

ولأبيك وأجدادك الذين يعبدون الأحجار من دون الملك الجبار، أتعيدني إلى عبادة الأصنام بعد أن أقررت الله بالوحدانية وبالرسالة للنبي صلى الله عليه وسلم...²

فوق ما تقدم، يبقى هذا المقطع الحكائي من السيرة بمثابة وضعية بدئية، مهّد بها الراوي لبيان معالم صورة راس الغول في ذهن المتلقي أولاً، وبيان من سيقف في وجهه ثانياً، إنه تمهيد لصراع بين قطبين متناقضين، قطب الإيمان ويمثله الرسول الكريم محمد بن عبد الله، وقطب الوثنية ويمثله راس الغول / مخلوق بن شهاب.

وتعلن السيرة منذ بداية الحكاية عن أفعال راس الغول اللا إنسانية، مخلوق متفرد في خلقته وفي أخلاقه، متجبر قاتل لا رحمة فيه، وصلت صلابته إلى حد قتل والده (شهاب) والسيطرة على الملك بالقوة "قال لهم: تعرفون من هذا، فقالوا: أبوك أيها الملك الهمام، وقال: أتعلمون من فعل به هذه الأفعال، فقالوا: لانعلم، فقال لهم: أنا الذي فعلت هذا الفعل..."³

وزاد من جبروته وكفره أن أمر الصناع بصناعة صنم كبير كله من الزبرجد الأخضر، ليتخذها إليها يعبده من دون رب العالمين، قال الراوي: "وأمر العربان أجمعهم أن يسجدوا لهذا الصنم، وسماه الرب فراش"⁴.

تظهر وظيفة الإخبار مرة أخرى، وهي مهمة لها الدور الجلي في جلب المعلومات الخاصة بالعدو، إذ كان الرسول صلى الله عليه وسلم في حاجة إلى معرفة معلومات كاملة عن عدو الدين، فجاءه عمر بن أمية الضمري، ليخبره عن راس الغول وعن غطرسته وعنفه، ومن ثم قرر النبي الكريم التحرك لإنهاء هذا الوحش المخيف والقضاء على الوثنية بعون من الله؛ فهو الرسول الكريم المكلف بنشر الإسلام والدعوة إلى الإيمان بوحدانية الله، وبما أن راس الغول هو ذلك العنيد المناهض لدعوة الرسول، فإن الحكاية سيضعنا أمام أحداث جديدة أسهمت في إثراء المادة السردية، وزادت من عنصر التشويق لدى المتلقي، علماً أن المتلقي يدرك الحقيقة مسبقاً تمام الإدراك، حقيقة انتصار النبي الكريم على عدوه، لأن الإيمان بصدق النبوة يجعله يسبق حقيقة السرد، ويبقى عنصر التشويق لديه منحصراً في الطريقة التي سينتهي بها عدو الإسلام راس الغول.

وعلى الرغم مما قيل عن راس الغول، فإن أصحاب الرسول أبدوا استعدادهم لمواجهة هذا المخلوق ودعوته إلى الدخول في الإسلام، وكانت هذه المهمة من نصيب الزبير بن العوام الذي تحدى أخطار راس الغول (وظيفة التحدي) ليبلغه رسالة النبي الكريم بالدخول عن عبادة الأوثان، والدخول في دين الإسلام، وعمل الرسول الكريم على تعزيز هذا التحدي بإرسال علي بن أبي طالب – على الرغم من مرضه – في أثر الزبير

²- فتوح اليمن، ص 3

³- فتوح اليمن، ص 5

⁴- نفسه، ص 6

بن العوام، ولعل الإشارة إلى مرض علي هي تقنية سردية أراد بها الراوي تحريك التشويق في نفس المتلقي، وذلك بمنح السرد مجالاً أكثر فساحة؛ فعلي بن أبي طالب تردد في بداية أمره والعلّة في ذلك المرض، مما اضطر الرسول الكريم إلى زيارته رفعا لمعنوياته ثم علاجه قصد الشفاء، وفي ذلك سلوك متواضع من نبي ورسول تجاه المسلمين، وهو سلوك منافي تماماً لسلوك راس الغول،، ولعل اهتمام الرسول الكريم بعلي بن أبي طالب فيه إدراك من النبي أن علياً هو من سيواجه راس الغول ويقضي عليه، كما أنه على إدراك بأن الزبير بن العوام سيتعرض للإساءة، والراوي اعتمد في ذلك تقنية ترتيب الأحداث وتقديمها بشكل متناوب، وليس في خط حدثي متواصل، إذ وضع الشخصيات في خط تغييري، تسهم في تغيير الأحداث بين المقطع والآخر. وبما أن العدو له عيون، فإن ذلك أوقع الزبير بن العوام في قبضة راس الغول، رغم الخدعة التي انتهجها (وظيفة الخدعة/ TROMPERIE) مع عيون المعتدي "اعلموا أني رجل غريب وعابر سبيل أني طالب الملك شهاب مخلوق، عسى أن يعطيني شيئاً من المال أستعين به على عيالي وقد أظهر الفقر والمسكنة..."⁵

ولعل التواطؤ الحاصل بين الشيطان وراس الغول، هو ما أوقع الزبير بن العوام في قبضة المعتدي (وظيفة التواطؤ COMPLICITE) فتعرض للإساءة والضرر، "وأنا لا بد لي أن أعذبك عذاباً شديداً حتى يأتي الذي يأمرك ويخلصك، ثم إن الملعون أمر العبيد أن ينزعوا ما كان عليّ من ثياب ويضربوني بالسياط، ففعلوا ذلك وما زالوا يضربوني حتى مزقوا جلدي..."⁶، وأصبح البطل الضحية يعيش حالة نقص (وظيفة النقص LE MANQUE)، نقص في القوة بسبب التعذيب الذي تعرض له، نقص في السلاح، ثم نقص في القدرة على الهروب والتنقل.

وأمام وضعية البطل الضحية، يمنح السرد لعلي بن أبي طالب مهمة البطل الباحث، يبحث عن البطل الضحية الزبير بن العوام من جهة، والمعتدي من جهة أخرى، مما أعطى للسيرة تنامياً سردياً، عززه الراوي باختبار تعرض له علي قبل إنجاز المهمة المكلف بها، وكان الاختبار هو مواجهته للكمين الذي نصبه له كفار مكة قصد القضاء عليه، لكن تدخل العنصر المساعد المتمثل في عمه العباس، ساعده على النجاح في مهمته الأولى، إذ بعث العباس غلامه زيد لعلي قصد إبلاغه عن نية الكفار "فنادى عبده زيدا وقال له: يا زيد إن هؤلاء الثلاثة لا بد ساروا إلى ابن أخي، وإنهم الآن شياطين العرب، وإني أخاف أن يقتلوه، فاركب حصاني الأدهم واسبقهما والتق به، وقل له يأخذ حذره منهم وأنت حر لوجه الله..."⁷

⁵ - الفتوح، ص 8

⁶ - نفسه، ص 9

⁷ - نفسه، ص 10

وبهذا استطاع علي بن أبي طالب أن يتغلب على الكفار، ويؤدي مهمته بنجاح، ولعل الراوي كان يقصد من ذكر هذه المهمة بيان المؤهلات التي يتوفر عليها البطل الباحث في الحرب والمواجهة، وهو قصد يريد منه إشراك المتلقي في أعمال ذهنه لبناء صورة متكاملة عن البطل الذي سيؤدي المهمة التي أناطه بها رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ولتعزيز مهمة البطل (علي) أرسل رسول الله - الذي أصبح يلعب دور المرسل في السيرة- فرساناً كي يعضدوا علياً ويساندوه " تخرجون أمام القوم وتسبقون القوم وتلحقوهم بابين عمي علي بن أبي طالب واقرووه مني السلام، وكونوا معه في تلك الأماكن ليقضي الله أمراً كان مفعولاً، قال: أجابوه بالسمع والطاعة وخرجوا من عنده، وهم مثل الريح الهبوب لم يكن آخر النهار حتى أدركوا الكرار فلما نظر إليهم الإمام علي كرم الله وجهه، نادى ما الخبر يا أحباب الله؟ فقالوا له: النبي أرسلنا إليك وقد أمرنا بالسلام عليك وأن جبريل عليه السلام أخبره بما صار وبخبر الزبير بن العوام، وأنه الآن في يد اللئام..."⁸

لقد دخل علي في فعل التنقل من أرض الإسلام في اتجاه أرض الوثنية قصد ردها وردّها إلى جادة الصواب؛ أي الإيمان بالله وبرسالة نبيه، (وظيفة التنقل)، وأثناء تنقله مع الفرسان المسلمين، بدأ علي في نشر الإسلام والحث على الدخول فيه، وكان ذلك مع كافر صادفه في الطريق وزوجته، فأمرهما علي بالإسلام، ونجح في مهمته، ثم أخبر بالمهمة التي أمره النبي الكريم بها "ثم أمرنا الإمام بالسير وركب المسلمون وساروا من خلفه، وهم طالبون بلاد راس الغول..."⁹

لقد كان الراوي يعمل دائماً على فتح مقاطع سردية صغرى تتخلل متن السيرة بغرض منح السرد مجالاً أكبر، لتمكين عنصر التشويق في نفس المتلقي، ومن ذلك ما حدث لعمر و مع فرسان راس الغول الذين أسأوا إليه وعذبوه، وكان ذلك بسبب الخدعة التي وضعها، فأظهر نفسه شاعراً فصيحاً قصد راس الغول للعطاء، وهو في حقيقة أمره يريد معرفة حال الزبير بن العوام / البطل الضحية، "فأخذوني وفي دار الضيافة أدخلوني وأحضروا لي طعاماً، فأكلت وحمدت الله وقلت في نفسي الآن أمضي إلى خارج الدار لعلي أرى الزبير بن العوام وأتسبب له في الخلاص هذا، وقد خرجت أتفرج ذات اليمين وذات الشمال وبينما أنا سائر إذ نظرت إلى صخرة صماء سوداء كبيرة وفي أطرافها سلاسل وأغلال، فنظرت إليها فرأيتها في عنق الزبير رضي الله عنه وأرضاه..."¹⁰

⁸ - الفتوح، ص ص 11-12

⁹ - نفسه، ص 13

¹⁰ - الفتوح، ص 15

إن ما يثير الانتباه في هذه السيرة هو أن البطولة غير ثابتة، بل هي قيمة تتغير بتغير الشخصيات والأحداث، حتى وإن حدد الراوي معالم البطولة الرئيسية وحصرها منذ مطلع الحكى في شخصية علي بن أبي طالب، بوصفه معيناً بأمر من المرسل (الرسول الكريم).

إن المتن السردي – حسب ف. بروب – يحتوي على قيم ثابتة وأخرى متغيرة، إذ يرى أن الوظائف قيم ثابتة، بينما الشخصيات قيم متغيرة، لذلك نجد أن علياً يتحول إلى مرسل كلف عمرو بالتوجه نحو راس الغول قصد تخليص الزبير بن العوام من أسرته، وحين انكشف أمره قتل جندياً أحد أولاد راس الغول، ودخل في صراع مع قواس الابن الآخر لراس الغول، وأصبح في دائرة المطاردة la poursuite حينها تدخل علي لإنقاذه من العدو، "إذا به الفارس الهمام والأسد الشجاع الضرغام، وهو ينادي ويقول: ارعوا عنه يا حزب الشيطان وابشروا بالذل والهوان، فقد أتاكم الدمار وقطع الآثار فأنا مظهر العجائب أنا الثاقب أنا فارس بني غالب أنا الإمام علي بن أبي طالب...."¹¹

وهكذا، يدخل علي بن أبي طالب في دائرة الصراع (وظيفة الصراع)، وهي الوظيفة التي كان ينتظرها المتلقي بشوق كبير، إذ وزع الراوي أحداث الصراع بشكل متدرج تجعل المتلقي في حالة من التركيز والمتابعة.

لقد فتح الراوي في حكيه باب الحرب بين المسلمين والكفار؛ فكانت المواجهة تتم بين أبطال المسلمين بزعامه علي، وفرسان الكفار بزعامه المقلقل بن راس الغول، فانتهى الصراع في مرحلته الأولى بانتصار المسلمين الذين قتلوا عدداً كبيراً من الكفار، الأمر الذي أثر على نفسية المقلقل، وجعله يشعر بالخطر والهلاك، فاضطر إلى مراسلة والده يخبره بحاله وحال الكفار معه (وظيفة النجدة).

ويبدأ الصراع من جديد شارك فيه أبطال مسلمون، مثل خالد بن الوليد، وزهير العامري وطلحة بن عبد الله التميمي تحت قيادة علي بن أبي طالب الذي وضع لهم خطة حربية، قسم فيها هؤلاء الأبطال على اليمين واليسار، حتى يتمكنوا من الفتك بالكفار "وتقدم الإمام وقال لهم: يا عصابة الإسلام دعوني في القلب وزهير والفضل في اليمين، والمقداد وخالد بن الوليد في الميسرة، وسعد بن عباد بن الصامت في الجناح اليمين، وطلحة في الجناح اليسار فعند ذلك حملوا ونادوا الله أكبر...."¹²

¹¹ - نفسه، ص 16

¹² - الفتوح، ص 18

وعلى الرغم من الإمدادات التي كان يتلقاها المقلقل بالآلاف من الفرسان، فإن الهزائم توالى عليه، مما جعله يكثر من العدة والعتاد حتى حوصر المسلمون؛ ففكر علي بطلب النجدة من نبيه الكريم (وظيفة النجدة)، وهو الزمن الذي تدخل فيه الرسول صلى الله عليه وسلم، لتعزيز صفوف المسلمين ورفع الرهبة عنهم وتحسيسهم بأن الله وعدهم بالنصر لا محالة، فكان ذلك بشري لعلي والمسلمين جميعاً "لم يمض ساعة إلا والغبار ثار، وإذا به من جيش الإسلام وفي مقدمته سيد الإمام (قال الراوي) فلما رأى الإمام علي ذلك فرح واستبشر ورجع على المسلمين وأخبرهم بصحة الخبر، فهللوا وكبروا وترجلوا عن خيولهم وإليه أقبلوا وقبلوا يديه..."¹³

لقد كان لحضور النبي الكريم دور في التأثير على نفسية المسلمين، إذ منحهم حضوره استعداداً وقدرة على المواجهة في سبيل نصرته الإيمان، وهو تأثير كذلك على الكفار الذين باتوا ينظرون إلى هبة رسول الله ووقاره بشدة وانبهار، الأمر الذي أربكهم وخلق في صفوفهم الفتنة، وظلوا على حالهم حتى حضرهم راس الغول.

إن الملفت للانتباه في هذه السيرة، هو أن الراوي أعطى لوظيفة الصراع حيزاً كبيراً بوصفها العنصر الأكثر تشويقاً، انتظره المتلقي بسعة صدر، أملاً في معرفة ما سيحصل لراس الغول، ويمكن القول إن الصراع أخذ أشكالاً متنوعة، فإذا كان علي قد كلف بمواجهة الأعداء حرباً، فإن النبي الكريم لجأ إلى وسيلة الحوار والإقناع للدخول في دين الله الإسلام، إذ كلف الفضل بن العباس في الالتقاء بوزير راس الغول، وبعد أن شرح له الإسلام وما فيه من تعاليم سمحة آمن الوزير ودخل دين الإسلام عن اقتناع، وفي ذلك مكسب للمسلمين، حيث تحول الوزير من عنصر مضاد إلى عنصر مساعد يمد المسلمين بالمعلومات (وظيفة الإخبار) "دعني أكون ذخيرة عند هذا اللعين أطلعك على الأخبار..."¹⁴

وزاد من عضد المسلمين دخول الملك العرمم الإسلام وتحالفه مع المسلمين ضد راس الغول، فكانت ضربة قاصمة لظهره. وظلت وظيفة النجدة بارزة في الحكى تتأرجح بين المسلمين والكفار، وهو أمر يتبعه الراوي، ليجعل المتلقي في لهفة ينتظر نهاية السرد وانكشاف الحقيقة، وظل الراوي يخلق الأحداث لمنح السرد زمناً أطول يشد السامع، إلى أن وصل إلى الحدث الرئيس الذي تنهض عليه السيرة، وهو الصراع بين علي بن أبي طالب (البطل الحقيقي) وراس الغول (البطل المضاد)، لينتهي الحكى وينتهي معه الصراع بانتصار علي بن أبي طالب على خصمه (وظيفة الانتصار la victoire) "ثم إن الإمام علي حمل اللعين حملة الغضب، فتلقاه اللعين وتقاتلا وتضاربا ضربا يقصر الأعمار، وقد بان من عدو الله التقصير، فضربه الإمام ضربة هاشمية... بل والسيف وقع على رقبة اللعين فشقها وهوى في جسمه إلى أن شقه نصفين وتركه على الأرض

¹³ - نفسه، ص 19

¹⁴ - نفسه، ص 20

المرسل (الرسول الكريم) ----- المرسل إليه (راس الغول).

الموضوع: الدعوة إلى الإيمان بالله وحده

الذات: (علي بن أبي طالب)

المساعد للذات البطة: أصحاب رسول الله من الفرسان

العامل المعيق: كفار قريش+ فرسان راس الغول

والجدير بالإشارة، هو أن الراوي تحكم في أحداث السيرة بتحويله بعض العناصر المعيقة إلى عناصر مساعدة، مثل وزير راس الغول الذي دخل الإسلام، وبات يمد المسلمين بالعون من داخل صفوف الكفار.

ويمكن النظر إلى أحداث السيرة من منظور النموذج العاملي في شكل ثنائية محددة، تمثلت في الصراع بين الإيمان والوثنية.

لقد ارتكزت السيرة على مسارين سرديين متعارضين، يقومان على التناقض، يمثل المسار الأول الرسول صلى الله عليه وسلم بوصفه نبيا كلفه الله بتبليغ الرسالة، وسانده في ذلك أصحابه وعلى رأسهم ابن عمه علي بن أبي طالب، ويمثل المسار الثاني راس الغول بوصفه ملكا تجبر وطغى، واتبع مذهب الشيطان والأوثان.

وعلى ضوء هذا التناقض، تبنى الراوي أسلوب التشويق كعنصر أسهم في تولد الأحداث وتعاقب الشخصيات داخل المتن السردى.

لقد أسهم النموذجان المذكوران أعلاه (النموذج التعاقبي - النموذج العاملي) في بيان مضامين السيرة من حيث أحداثها وشخصياتها، مما يقودنا إلى تساؤل مفاده: هل يصح الاكتفاء بما ورد في السيرة من حكي أحداث أم تقتضي الضرورة العلمية والمنهجية البحث فيما هو أعمق فيما يخص العناصر المعرفية التي قامت عليها السيرة؟ علما أن هذا الفن يختلف كثيرا، وإن تضمن متنا سرديا، عن الحكاية أو الخرافة، لماذا؟ لأن السيرة فن أدبي يحوي قيمة معرفية وتاريخية ثابتة يرويها صاحبها باستعماله للسان، إن لم يكن قد كتبها، لاسيما وأن ما وردنا من سير قديمة، غالبا ما كنا نستمتع بها عبر الرواية واستعمال اللسان، وتحديدًا في الحلقات الشعبية التي كان يتجمع فيها الناس حول الحكواتي، فيروي لهم من سيرة عنتر بن شداد، وسيرة أبي زيد الهلالي، وغيرها من الحكايات التي ظلت مادة شعبية تمد الناس بالحكمة والموعظة، وهي غالباً ما كانت توجه الناس في سلوكياتهم، وهو ما يؤسف له اليوم، إذ أصبحت هذه السير في اختفاء مستمر بسبب ظهور القنوات الفضائية

وغزوتها للعقل البشري الذي لم يعد قادراً على متابعة أو حتى استيعاب ما تقدمه هذه القنوات، فأصبح الإنسان بعيداً كل البعد عن ثقافته الشعبية وما تحويه من دلالات معرفية وتاريخية.

4- مقام السيرة:

تجدر الإشارة إلى ضرورة ربط أحداث السيرة بمقامها، والمقام على رأي لنفسن يقوم على خمسة عناصر هي:

- 1- عنصر الهوية.
- 2- الإطار الزمني.
- 3- الإطار المكاني.
- 4- معتقدات ومعارف المتخاطبين.
- 5- مقصدية الخطاب.

** عنصر الهوية:

يظهر عنصر الهوية بشكل بارز في السيرة من خلال الشخصيات التي تردت في مصادر التاريخ، وهي شخصيات حقيقية بعيدة عن كل خيال، وهذه الشخصيات هي:

أ- الرسول صلى الله عليه وسلم، محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، بعثه الله نبياً ورسولاً، ليدعو الناس إلى الإسلام ديناً للتسامح والألفة؛ فكانت رسالته جامعة لأوامر ونواه، وردت واضحة في كتاب الله عز وجل. تحدث الناس عن صدق أمانته وعظمة خلقه، وسجل التاريخ أن الرسول الكريم دخل في حروب مع الكفار، منها غزوة بدر وغزوة أحد وغزوة الخندق، وانتهت بعون الله بالانتصار للنبي الكريم، حتى وحد شمل المسلمين وعودهم على كلمة واحدة هي لا إله إلا الله.

ب- **علي بن أبي طالب** بن هاشم الهاشمي القرشي بن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف، كان له القدم الثابت في الغزوات؛ فهو أول المبارزين يوم بدر، وأول الثابتين يوم أحد وحنين، وأول الفاتحين يوم خيبر، وأول السابقين يوم الفتح.¹⁶

ت- **الزبير بن العوام**، ابن عم رسول الله، صاحبه في الغزوات والدفاع عنه.

ث- **خالد بن الوليد بن المغيرة**، شارك في الحروب، وارتبط اسمه بالفتوحات الإسلامية.

فهذه شخصيات ثابتة تاريخياً، وقامت بدور فاعل في الدفاع عن الإسلام وعن الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، لذلك لا يبدو غريباً لدى المتلقي دورهم الدفاعي عن الدين، وكل ما ذكره الراوي عنهم في السيرة يعد من الحقائق التاريخية التي عرف بها هؤلاء الفرسان وغيرهم، لأن من شيمهم حب الشهادة في سبيل الله، والألفة التي ألفهم عليها رسول الله؛ فكانت سلوكياتهم اقتداءً بمحمد صلى الله عليه وسلم، ومستمدة من القرآن الكريم.

أما الشخصيات المضادة في السيرة، وما روي عنها من سلوكيات لا إنسانية كما هو الشأن في شخصية مخلوق بن شهاب (راس الغول)، قتل والده، وله سبعة أولاد يتمتعون بقوة خارقة في الحرب؛ فهي العنصر الحاضر المغيب، حاضر كشخصيات وثنية تعبد الأصنام والأحجار، وتدين للرب فراش الذي اصطنعه راس الغول، ومغيب في الذاكرة الشعبية الإسلامية، لأن مثل هذه الشخصيات هي من صنع خيال الراوي الذي أبدع في تصوير الطرف المناقض للإسلام؛ أي الوثنية؛ فهي شخصيات تدل على الغلظة والخشونة والفظاظة، وتقوم بسلوكيات تتنافى مع الإسلام، ومن ثم يكون التناقض على مستوى الهوية تناقضاً في السلوكيات والمعتقد، استثمره الراوي كتقنية سردية أسهمت في نسج أحداث تداخل فيها التاريخي بالديني، والواقعي بالخيالي، والإنساني بالإنساني، مما يجعل المتلقي في حيرة من أمره، ليجد نفسه مضطراً إلى تتبع خيوط الأحداث أملاً في التمييز بين الحقائق الثابتة والحقائق المختلفة؛ أي الحقائق التي وجد فيها الراوي منفذاً لتطوير السرد ومنحه مجالاً يشد الانتباه.

** الإطار الزمني:

ما يثير الانتباه أثناء قراءة السيرة هو غياب التواريخ التي يمكن أن توجي للقارئ بثوابت تاريخية حاضرة في الذاكرة، واكتفى صاحب السيرة بذكر أحداث عامة في زمن مشهود له بالصحة والصدق هو زمن الرسول صلى الله عليه وسلم؛ أي الزمن الذي قام فيه عليه الصلاة والسلام بنشر الرسالة بأمر من ربه، فواجه الكفار

¹⁶ - مصطفى نجيب، حماة الإسلام، دار الكتاب العربي، بدون تاريخ، ص 104

ودعاهم إلى عبادة الواحد الأحد والتخلي عن عبادة الأصنام، فنتج عن ذلك خلاف بين المسلمين والكفار، أدى فيما بعد إلى مفاوضات ثم حروب ثم انتصارات، تم فيها نشر الدين الإسلامي وتوحيد الأمة العربية الإسلامية بعد أن كانت على شفا حفرة بسبب التفرقة والخلافات.

وعلى هذا الأساس، توزع الزمن إلى زمن أول هو زمن عبادة الأصنام، وهو الزمن الذي ساد فيه راس الغول وتجبر، وزمن ثان رفض الزمن الأول ورفض سلوكه وقيمه الدينية؛ فكان الزمن الثاني فضاء للدعوة المحمدية التي أسست لسلوكيات وقيم اجتماعية ودينية جديدة، تدعو إلى الإيمان بالله والتسامح والتحاور والتعارف.

إن التناقض الذي حصل بين الزمنين أدى إلى تناقض بين عناصر الهوية، فنتج عن ذلك صراع بين الظلم والطغيان الذي مثله راس الغول، والإيمان بالله ورسالة نبيه، إذن ظل الزمن في السيرة عنصراً لا يخرج عن الأحداث والشخصيات، إذ ترك الراوي المجال مفتوحاً للمتلقي، ليدرك من خلاله زمن الأحداث، وربما يحاول أن يقربه منها ليتعايش معها، وكأنه عنصر حضر الصراع بين النبي وراس الغول.

** الإطار المكاني:

إذا ما أمعنا النظر في الأمكنة على المستوى الجغرافي، يتبادر إلى الذهن تباعد من حيث المسافة، إن لم نقل هو تباعد من حيث السلوك والمبادئ؛ فـ"راس الغول" يعيش في بلاد الخثعم، والخثعم كما جاء في لسان العرب (مادة: خثعم) اسم جبل، فمن نزله فهم خثعميون، وخثعم اسم قبيلة أيضاً، نسبة لخثعم بن أنمار من اليمن، ويقال هم من معد صاروا باليمن، وقيل خثعم اسم جمل سمي به خثعم، والخثعمة تلطخ الجسد بالدم، وقيل به سميت هذه القبيلة، لأنهم نحروا بغيرا فتلطخوا بدمه وتحالفوا، وجاء في معجم القبائل العربية، خثعم قبيلة تقع ديارها على طريق الطائف... وخثعم بن أنمار قبيلة من القحطانية تنسب إلى خثعم بن أنمار... منازلهم بجبال السراة وما والاها... مرت بهم الأزدي في مسيرها من أرض سبأ وتفرقها في البلاد، فقاتلوه، وأنزلوهم من جبالهم وأجلوهم عن منازلهم ونزلتها أزدي شنوءة (غامد وبارق ودوس)... فظهر الإسلام، وهم أهلها وسكانها، ونزلت خثعم بين بيشة وتربة، وظهر قبالة محجة اليمن من مكة إليها وما صاقب تلك البلاد وما والاها¹⁷، وذكر صاحب معجم القبائل العربية كذلك أخباراً عن أيام خثعم، جاء فيها أن خثعم جمعت جموعاً من اليمن، وغزت قبيلة ثقيف بالطائف، فخرج إليهم غيلان بن سلمة في ثقيف فقاتلهم قتالاً شديداً، فهزمهم وقتل منهم مقتلة عظيمة، وأسر منهم.... وروي في كتب المغازي أن النبي صلى الله عليه وسلم، سير قطبة بن عامر بن حديدة إلى تبالة

¹⁷- ابن منظور، لسان العرب، مادة خثعم.

ليغير على خثعم، في صفر سنة تسع، وبعث معه عشرون رجلاً، لبثن الغارة عليهم، فاقتتلوا قتالاً شديداً، وكثر جرحى الفريقين، وقتل قطبة من قتل، وساقوا النعم والنساء والنساء إلى المدينة.¹⁸

أما الرسول، فكان في المدينة فضاء الإيمان والعبادة والقيم التي بثها الدين الإسلامي، وبين الفضائين بون شاسع؛ فالأول فضاء عاشق لسفك الدماء بالاعتداء والسطو والاعتصاب، والثاني فضاء السكينة والتسامح، غير أن الرسالة النبوية لم تنظر إلى المسافات والحدود المكانية، فهي رسالة للإنسانية جمعاء، على اعتبار أن الرسول هو رحمة للعالمين؛ فرسالة الإسلام رسالة عالمية لا تنظر إلى المكان، بل هي رسالة هدفها الأول هو الدعوة إلى وحدانية الله ثم تكافل البشرية فيما بينها بفضل العدالة والمساواة والتكافل بوصفها قيماً منافية لقيم راس الغول اللا إنسانية.

** مقصدية الخطاب:

المقصدية تداولياً، الغرض من الخطاب، ومقصدية السيرة هي الإشارة إلى فتح باب الحصن بعد فرعنة راس الغول وغطرسته، وبيان أن من يؤازره ربه ويعينه سينتصر لا محالة؛ فالمسلمون قبل أن يدخلوا في المعركة مع راس الغول ودهم ربهم بالنصر، لأنه نصر لرسالة النبي الكريم ودعوته، وما النصر سوى إلغاء للظلم والطغيان وعبادة الأوثان التي دعا إليها راس الغول في أرجاء البلاد.

ومقصدية السيرة، فوق ما تقدم، هي رفض الأوثان والأصنام، وهذه مهمة بعث بها الله محمداً ليقوم بها، وسخر له فرساناً امتثلوا لأوامره في سبيل نصره الإسلام، وكان على رأس هؤلاء الإمام علي بن أبي طالب الذي قدمه الراوي في صورة الفارس البطل القادر على مواجهة الأهوال والمخاطر، وما راس الغول سوى نموذج من هذه الأهوال التي واجهها في سبيل نصره ابن عمه محمد بن عبد الله، بوصفه نبياً ورسولاً من واجبه رفض كل القيم السلبية المنافية لتعاليم الدين الإسلامي السمحة.

5- بنية الاستعمال:

تميزت اللغة التي رويت بها السيرة بالسهولة والوضوح، والأمر في هذا الشأن في غاية البساطة، لأن صاحب السيرة كان يوجه خطابه إلى شريحة اجتماعية واسعة يلتقي فيها العامي من الناس والمتقف، يربطهم جميعاً انتماء ديني واحد هو الدين الإسلامي، لذلك كانت ألفاظ السيرة تنهل من قاموس ديني قصد تحريك مشاعر المتلقي الدينية وشد انتباهه، وبيان مجد الإسلام الذي يجب أن يبقى عالقاً في أذهان الناس ثابتاً في

¹⁸ - عمر رضا كحاله، معجم القبائل العربية، ص 332

قلوبهم، وتبقى المعاني حافظة لجهود الأجداد في إرساء الدعوة الإسلامية، وقد اتخذ الراوي من شخصية علي بن أبي طالب الإنسان النموذج في مواجهة الكفر والكفار، فسخر قوته التي منحها الله في سبيل نصرته الدين الإسلامي، فأصبح عليه الراوي عدداً من الصفات البطولية التي تفوق أحياناً قدرات العقل، إذ صورته في صورة بطل متكامل لا يقهره أحد، وكان سيفه من السيوف القاهرة للكفار، لذلك ركز الراوي على شخصية علي بن أبي طالب في مواجهته لراس الغول، حتى يبقى شخصية إسلامية، ورمزاً تاريخياً موشوماً في الذاكرة الشعبية الإسلامية، وهذا قد يقودنا إلى البحث عن شخصية الراوي وأنساقه الفكرية في صيغة سؤال، من هو الراوي؟ ولم تم التركيز على شخصية علي بن أبي طالب؟ علماً أن فرساناً، مثل الزبير بن العوام، وخالد بن الوليد وغيرهم من الفرسان المسلمين أسهموا في الدفاع عن رسول الله.

ما يلفت الانتباه في هذه السيرة هو أن الراوي استند على أسلوب السند (عن الشيخ أبي الحسن رضي الله عنه ونفعنا به، قال: حدثنا محمد بن إسحاق الكلبي الأعمش عن ابن عباس رضي الله عنه حدثنا في الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم...)، وحيماً منه أن هذه السيرة تحكمت فيها روايات متناقضة وذلك لإثبات صدق الحدث، وما دامت هذه الأحداث هي رواية عن رسول الله، فيجب التعامل معها بالتصديق، والنظر إليها كجزء من الحديث، يقول الدكتور إحسان عباس مبيناً بعض المؤثرات التي تحكمت في كتابة السيرة النبوية: "كتبوا سيرته تحت مؤثرات أخرى، نفرد منها بالتميز عاملين كبيرين:

الأول أن سيرة الرسول جزء من السنة؛ فهي والحديث مصدران مهمان من مصادر التشريع، ومنها تستفاد الأحكام، ولذلك فلا بد من جلائها في دقة بالغة، لكي تكون أعماله - إلى جانب أقواله - مشرعاً واضحاً لرجال الشريعة وأهل الإفتاء والقضاء.

والثاني: أن المسلمين كانوا قد ورثوا نظرة الجاهلية إلى التاريخ، وهي نظرة قائمة على "الأيام" وطبيعة الحرب وشؤون القتال، ولذلك اهتم كتاب السير قبل كل شيء، بمغازي الرسول، وتصوير ذلك الدور الحربي الذي أدى إلى انتصار المسلمين في النهاية... وبتأثير العاملين معاً، عدت السيرة جزءاً من الحديث تخضع لأحكام الإسناد خضوعاً دقيقاً، فهي على هذا ليست رواية منطلقة مسترسلة، ولكنها روايات متفرقة مقيدة، يجمعها موضوع واحد، ويعوق الإسناد روايتها عن التفسير والتحليل، لأن جهد كاتبها منصرف إلى الصدق في الخبر..."¹⁹

فما قيل عن الرسول صلى الله عليه وسلم وجب قبوله بالتصديق، ومن كذب عليه، فليتبوأ مقعده من النار.

¹⁹ - إحسان عباس، فن السيرة، دار الثقافة بيروت، سلسلة الفنون الأدبية- 4- 1956، ص ص 13- 14

إن الدور الحربي الذي قام به الرسول في مواجهة الكفار حقيقة تاريخية لا شك فيها لم تذكرها الروايات والسير فحسب، بل ذكرها القرآن الكريم في عديد من الآيات، ومنها قوله تعالى: "يا أيها النبي حرّض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون"²⁰.

فالتاريخ يثبت دور المسلمين الحربي ومواجهتهم للكفار، حتى انتهى الأمر بانتصار المسلمين، وهذا جلي في السيرة موضوع الدرس، غير أن ما أضافه راوي السيرة من أوصاف ونعوت تعلقت سواء بشخصية الرسول أو بشخصية علي، كانت أوصافاً نابغة من إعجاب الراوي بعظمة الرسول الكريم وقدره علي، عظمته صلى الله عليه وسلم تبرز في خلقه الحسن وفي حكمته النبوية، وهذا بإمكان أي شخص مسلم أن يرويها عن الرسول الكريم، لأن ذلك أمر ثابت في القرآن الكريم لقوله تعالى: "وإنك لعلى خلق عظيم"²¹، وجلي في سنته قولاً وفعلاً.

أما قدرة علي، فتظهر في الصورة البطولية التي رسمها الراوي له في السيرة، بياناً للدور الذي أداه في الدفاع عن الإسلام والمسلمين.

خلاصة:

فوق ما تقدم، تحتفظ السيرة بقيم متنوعة تقتضي الضرورة المنهجية الوقوف عندها وفق الآتي:

— **القيمة الإنسانية**، وتتمثل في عظمة خلق رسول الله الذي كان قدوة حسنة لأصحابه في الأخلاق والإيمان، خلافاً لراس الغول رمز الفظاظة والغلظة المنافي للأخلاق الإنسانية.

— **القيمة التاريخية**؛ فالسيرة تضمنت أحداثاً تاريخية يمكن عدّها سجلاً تاريخياً، يدعم الباحث في التاريخ الإسلامي تحديداً بمعلومات تاريخية قيمة، قد تفتح له باباً من أبواب البحث في التاريخ الإسلامي، لاسيما وأن السيرة تحدثت عن رجال كافحوا لتأسيس دولة إسلامية، وأولهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكانوا خير مجتمع مؤمن أسس على قواعد الحرية والمساواة.

— **القيمة الاجتماعية**، وتتجلى في أن السيرة تحكي عن سلوكيات لا إنسانية كانت سائدة قبل الإسلام، مثل الاستعباد والظلم والفساد وما إلى ذلك من القيم الاجتماعية الفاسدة التي حاربها الإسلام وقضى عليها.

²⁰ - سورة الأنفال، الآية 65

²¹ - سورة القلم، الآية 4

– القيمة الدينية، وتظهر في محاربة المسلمين بقيادة رسولهم الكريم للأوثان والأصنام، والدعوة إلى التوحيد والإيمان بالله وحده.

– القيمة الأدبية، وتبرز في فن من فنون الحكيم الذي قدم لنا نصاً أدبياً متماسك العناصر من حيث البناء السردي الممثل في الأحداث والشخصيات وفضاء الحكيم زماناً ومكاناً.

– القيمة النفسية، والغاية منها انشراح النفس وراحة القلب وتنبيه العقل، وجلاء الهم عبر ملء القلب بالإيمان.

وعلى الرغم من الوقوف عند هذه القيم التي تميزت بها السيرة، فإن ثمة عناصر أخرى وجب إثارتها في هذه الدراسة، ويتعلق الأمر باللغة التي روي بها النص، إذ تخللها اللحن وشيوع الخطأ، مما يقودنا إلى إعادة السؤال: متى رويت هذه السيرة؟ ومن هو راويها؟ وكيف تم تناقلها؟

لا شك أن عنصر الزمن، وقناة التبليغ، والمتلقي، هي عناصر تدخلت في بناء السيرة؛ فالزمن لعب دوره بين الحدث الحقيقي، وما تلاه من أحداث أخرى صنعها الراوي في أزمنة لاحقة أخرى. أما قناة التبليغ، فهي الطريقة التي وصلت بها هذه السيرة، ونقصد بذلك الرواية والسماع، إذا ما افترضنا أن المتلقي هو من عامة الناس لا يعرف القراءة، والمتلقي بدوره يغير ويبدل بلغته في الأحداث فيضيف ويحذف ما شاء لأسباب أو أخرى.

والجدير بالإشارة، أن فن الحكيم منبعه ليس رواة السير، وإنما كتابنا العزيز القرآن الكريم، فهو الذي عمق الإحساس التاريخي عند العرب حين قص عليهم قصص الأمم السابقة، وحين وصلهم بالأمم وجعل تاريخ الخليقة مجالاً لنظرهم، "إن القرآن الكريم حين فعل ذلك كله، كان يهدف إلى إثارة العبرة في نفوسهم، ولكن من المدهش حقاً أن هذه الغاية الخلقية كانت أضعف المظاهر حين بدأ المسلمون بكتابة السير، وقد بدؤوا بكتابة سيرة رسول الله، وكان هذا البدء يشير إلى درس أخلاقي عميق في حياتهم، لو شاءوا أن يتخذوا سيرة الرسول لتلك الغاية، ولكنهم لم يفعلوا بل كتبوا سيرته تحت مؤثرات أخرى..."²²

²² - إحسان عباس، المرجع نفسه، ص ص 12-13



MominounWithoutBorders



@ Mominoun_sm



Mominoun

الرباط – المملكة المغربية

ص.ب : 10569

هاتف: 00212537779954

فاكس: 00212537778827

info@mominoun.com

www.mominoun.com